جهود ابن القيّم في الإعجاز اللغويّ من خلال كتابه بدائع الفوائد

Ibnu AlQayem's efforts in Lingiustic in imitability through His book Badaiie Alfawaiid

مُصطفى رافِع.

جامعة البويرة – الجزائر-

om mustapharafa8515@gmail.c

تاريخ الإرسال: 2019/05/09	تاريخ القبول:2020/04/26

****

ملخص:

ممـا لا شـك فيـه أن بنـاء القـرآن اللغـوي يـأتي في مقدمـة أسـباب إعجـاز هـذا الكتـاب وخلـوده، وتـأتي هـذه المداخلـة التي تنضـوي ضـمن مجـال الإعجـاز اللغـوي، لتحـاول أن تقـف عنـد إسـهامات ابـن القـيم – الـذي يعـد واحـدا ممـن كـان لهـم جهـد بـارز في هـذا المجـال الخصـب، والكشـف عـن مـدى تجلياتهـا في كتابـه بـدائع الفوائـد الـذي يعتبر مـن أبـرز مؤلفاتـه، وذلـك مـن خـلال نمـاذج سنعرضـها في هـذه الورقـة البحثيـة تشـمل جوانـب الصـوت والصـرف والنحـو والفروق اللغوية.

الكلمات المفتاحية: ابن القيم; بدائع الفوائد; الإعجاز; الإعجاز اللغوي.

***ABSTRACT*:**

There is nodoubt that the linguistic Quranic constrictin is one of the in imitability and immortality of this Book, This paper, dealing with linguistic in imitability, attempts toscrutinige Ibnu AlQayem's contributions, aschooler who had made great efforts in this important field; as it clarfies his contributions through one of his books entitled Badaiie Alfawaiid, we will illustrate with examples at the morphological, grammatical and phonetic levels.

Keywords: Ibnu AlQayem ; Badaiie Alfawaiid,exegesis ; linguistic explanation imitability ; linguistic in imitability

المقال: جهود ابن القيم في الإعجاز اللغوي من خلال كتابه بدائع الفوائد

1. مقدمة:

القرآن الكريم هو كتاب الله الذي أُحكمت آياتُه، واختيرت كلماتُه، وعلا أسلوبُه، واتّفقت معانيه، وائتلفت مبانيه، فكلّ ما في القرآن الكريم يدعو إلى التّأمّل، ويقتضي التّدبّر وإنعام النّظر، نظرا لاشتماله على أسرار لا تتأتّى ولا تنكشف إلا لمن أطال التّأمّل والتّدبّر فيها، وأعمل فكره بالرّبط والتّحليل والاستنباط، فكان مناط أنظار العلماء وموضع عنايتهم وإن تعدّدت جهات نظرهم إليه وتباينت مشاربهم منه، فقد اعتكفوا على تأمّل النّصّ القرآنيّ، فكان كثيرا ما يُفضي بهم تأمّلهم إلى إشراقات لغوية، وأخرى بيانية وعلمية، فكان عملهم هذا تثويرا للقرآن، يذكر صاحب مجمع بحار الأنوار معنى " من أراد العلم فليثور القرآن " أي لينقر عنه ويفكر في معانيه وتفسيره وقراءته[1]، هذا وقد أوجب الله سبحانه على المسلمين تدبّر القرآن الكريم فقال تعالى:﴿ **أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾، وتدبّر القرآن يكون عن طريق إنعام النظر في سوره وآياته وجمله وكلماته وتراكيبه ومفرداته، ونفاذ النّظر إلى مضامينها ومراميها وأغراضها، وملاحظة دقائقها وأسرارها، وما لا شك فيه أن بناء القرآن اللغوي المتين يأتي في مقدمة أسباب سمو هذا الكتاب وإعجازه، وممن كان له إسهامات في الكشف عن مظاهر الإعجاز اللغوي في هذا الكتاب الخالد ابن القيم في كتابه الماتع اليانع " بدائع الفوائد".

إشكالية الدراسة: تتأسس الدراسة على إشكالية هي:
ما مدى إسهامات ابن القيم في الإعجاز اللغوي؟ وما تجلياتها في كتابه "بدائع الفوائد "؟

فرضيات الدراسة: انطلقت الدراسة من فرضيات هي كالآتي:

ـ تضمن كتاب بدائع الفوائد على مسائل من صميم الإعجاز اللغوي على الرغم من اشتماله على مسائل متنوعة.

ـ إسهام ابن القيم في إثراء مجال البحث في الإعجاز اللغوي.

أهداف الدراسة: تهدف مداخلتنا هذه إلى الوصول إلى مجموعة من الأهداف نذكر منها:

ـ التعريف بابن القيم، وكتابه بدائع الفوائد.

ـ الوقوف عند جهود ابن القيم وإسهاماته في مجال الإعجاز اللغوي من خلال عرض نماذج من كتابه بدائع الفوائد توضح بجلاء إسهامات ابن القيم الجليلة في هذا المجال .

منهجية الدراسة: اشتملت الدراسة على خمسة محاور على غرار المقدمة والخاتمة هي:
المحور الأول: في التفسير اللغوي للقرآن الكريم
المحور الثاني: في الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم
المحور الثالث: التعريف بابن القيّم
المحور الرابع: التعريف بكتاب بدائع الفوائد
المحور الخامس: نماذج للإعجاز اللغوي في القرآن الكريم من خلال كتاب بدائع الفوائد.

2. في التفسير اللغوي للقرآن الكريم:

العلم الذي يجعل محوره النّصّ القرآنيّ وكلّ ما يتعلّق به من قضايا هو علم التفسير الذي هو أعلى العلوم قدرا، وأقومها قيلا، وأصحها دليلا، وكيف لا وشرف كل علم بشرف موضوعه، وموضوع علم التفسير كلام الله

الملك القدير الذي هو منبع كل حكمة ومعدن كل فضيلة، كما أن كتب التفسير لها الصدارة بين الكتب، كون هدفها توضيح المراد من كلام الله تعالى بحسب الطاقة البشرية.

والتّفسير لغةً: مصدر الفعل فسّر فهو على وزن تفعيل، ويقال فسَر الأمر وفسّره أي وضّحه وبيّنه، وهو بمعنى التّأويل والكشف والإيضاح والبيان[2]، وجاء في القرآن الكريم﴿ **ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحقّ وأحسن تفسيرا** ﴾ **[الفرقان، الآية 33]**

وأما التّفسير اصطلاحا؛ فيورد السيوطي في كتابه التحبير في علم التفسير تعريفا له من حيث هو كشف معاني القرآن وبيان المراد منه سواء أكانت معاني لغوية أو شرعية بالوضع أو بقرائن الأحوال ومعونة المقام[3].

وعلم التفسير مهمّ جدا فهو الطريق إلى العمل بكتاب الله تعالى وتطبيقه كمنهج حياة، وهو أشرف العلوم لتعلقه بكتاب الله الذي هو أشرف الكتب على الإطلاق، وقد جعل أهلُ العلمِ العلمَ بالتّفسير من فرض الكفاية الذي لا تبرأ ذمّة الأمّة إلا بوجود ولو طائفة منها على مرّ الزّمان تتعلّمه وتتفق أصوله وتدلّ النّاس عليه[4]، وترجع أهمية علم التّفسير لاتّصاله المباشر بكلام الله تعالى، وشرفه على بقية العلوم لشرف موضوعه وغايته وشدّة الحاجة إليه.

ومن أهم اتجاهات التفسير التّفسير اللغويّ، الذي هو بيان معاني القرآن بما ورد في لغة العرب[5]، وإنّما يفهم بعض معاني القرآن ويطّلع على أسراره ومبانيه من قَوي نظره واتّسع مجاله في الفكر وتدبّره وامتدّ باعه وأحاط بلغة العرب، ذلك أنّ القرآن نزل بلسان عربي مبين، يقول تعالى: ﴿ **حم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون** ﴾، **[فصلت، الآيتان:2،1]**

لاشكّ أنّ القرآن الكريم هو المحور الذي دارت حوله علوم العربية، فقد كان الهدف الأسمى الذي أخلصت له هذه العلوم غايتها، وقد اشتغل علماء العربية بتدبّر البيان القرآني وأسراره تدبرا يرشد إلى الفقه الصحيح لمراد هذا البيان.

وحتّى يتأتّى فهم القرآن لا بدّ من فهم العربية، إذ العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن الكريم، ذلك أنّ القرآن نازل بلغة العرب،فمن أراد معرفة ما في كتاب الله جلّ وعزّ لم يجد من العلم باللّغة بد[6].

3. في الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم:

نالت قضية الإعجاز القرآني مساحة كبيرة من الفكر الإسلامي على مر العصور ولا تزال تشغله حتى عصرنا الحالي، وحد الإعجاز هو أن يرتقي الكلام في بلاغته إلى أن يخرج عن طوق البشر، ويعجزهم عن المعارضة[7]، كما أن المقصود بإعجاز القرآن الكريم هو إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، وهو الوجه الثاني المهم للكتاب العزيز، والوجه الأول الهداية التي هي أقوم، والثاني البيان والبرهان على صدق الرسالة[8]

إن القرآن الذي عجز العرب عن معارضته لم يخرج عن سنن كلامهم، ألفاظا وحروفا، تركيبا وأسلوبا، ولكنه في اتساق حروفه، وطلاوة عباراته، وحلاوة أسلوبه... قد بلغ الذروة التي تعجز أمامها القدرة اللغوية لدى البشر[9].

ثم إن الّذين حاولوا تفسير القرآن الكريم من وجهة لغويّة أرادوا أن يصلوا إلى أسرار الإعجاز اللّغويّ في القرآن، وما جاء به من نظم بديع ونسق فريد، وتطويع في بنية الكلمات ليصل بالجملة القرآنيّة إلى أقصى درجة من إحداث الأثر وأداء المعنى[10].

والإعجاز اللغوي يظهر المعاني الدقيقة، والحكم العظيمة لكتاب الله تعالى، إذ إن الإعجاز يظهر دقائق المعاني، وروعة المباني، وهو الذي يظهر المراد حقيقة من كلام الله عز وجل، والذين برعوا في علوم اللغة وأسرارها هم الذين برعوا في فهم أساليب القرآن ودلالتها[11].

يقول أبو النصر السمرقندي: "... إنّ كلّ حرف وضع بموضعه الذي يناسب المعنى المساق له، ولو غيّر حرف مكان آخر لذهبت فصاحة الآيات وبلاغتها"[12]، وهنا يسوق لنا أبو النصر مثالا[13] على ذلك ما استشكله العلّامة الأديب صلاح الدّين الصّفدي من قوله تعالى: ﴿ **إنّا هديناه السَّبيلَ إمّا شاكراً وإمّا كفوراً** ﴾، **[الإنسان، الآية 3]**

فكتب أبياتا إلى العلامة جمال الدين السبكي يقول فيها:

فكّرتُ والقرآن فيه عجائب بهرت لمن أمسى له متدبرا
في هل أتى لِمْ ذا أتى يا شاكرا حتى إذا قال الكفور تغيّرا
فالشّكر فاعله أتى في قلّة والكفر فاعله أتى مستكثرا
فعلام ما جاءا بلفظ واحد إنّ التوازن في البديع تقرّرا
لكنّها حِكمٌ يراها كلُّ ذي لُبٍّ وما كانت حديثا يُفترى

فأجابه من أبيات قائلا:

وجوابه إنّ الكفور ولو أتى بقليل كفر كان ذاك مكثَّرا
بخلاف من شكر الإله فإنّه بكثير شكر لا يُعدُّ مكثِّرا
فإذن مراعاة التّوازن ههنا محظورة لمن اهتدى وتفكّرا

هذا وقد نشأت الدّراسات اللّغويّة عند العرب متّصلة بالقرآن الكريم، فكان هو المحورَ الذي دارت عليه تلك الدّراسات بفروعها المختلفة، وقد اهتمّ علماء المسلمين بدراسة كتاب الله وقراءته واستنباط الأحكام والعظات والفوائد منه ولهذا تنوعت دراستهم للقرآن الكريم، ويعد ابن القيم واحدا من أولئك العلماء الأفذاذ الذين قاموا بخدمة كتاب الله عزّ وجل، أيّما خدمة فكتبوا الكتب، فجاءت حبلى بمعان إيمانية وفوائدَ لغوية يزيد الإيمان بمعرفتها وتزداد حلاوة القرآن في القلب بفهمها.

4. **التعريف بابن القيم:**

هو العلامة أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الدمشقي المشهور بابن قيم الجوزية، المولود عام 691هـ الموافق لـ: 1292م، والمتوفى عام 751هـ الموافق لـ: 1350م.

كان ابن القيم ذا معرفة واسعة، فقد تفنن في علوم الإسلام، فكان عالما بالتفسير وأصول الدين والحديث ومعانيه، والفقه ودقائقه، وبالعربية وتعلم الكلام والنحو وغير ذلك، ولم يدع نحلة أو مذهبا إلا عرضه في كتبه، وله معرفة بالتوراة والإنجيل والمزامير، وقيل: إنه يتقن العبرية والسريانية[14].

كما يذكر الحافظ ابن رجب أنه كان عارفا بالتفسير لا يجارى فيه، وبأصول الدين، وإليه فيهما المنتهى، وبالحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، لا يُلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله، وبالعربية، وله فيها اليد الطولى، وبعلم الكلام، وبكلام أهل التصوف وإشارتهم ودقائقهم[15].

برع ابن القيم في تصنيف الكتب وتأليفها، حيث تمتاز مؤلفاته بحسن الترتيب وجودة التأليف، وله من حسن التصرف مع العذوبة الزائدة وحسن السياق ما لا يقدر عليه غالب المصنفين، بحيث تعشق الأفهام كلامه، وتميل الأذهان له وتحبه القلوب[16].

ونظرا لثقافة ابن القيم الواسعة التي اكتسبها من تنوع شيوخه وسعة مكتبته، فقد تنوعت مؤلفاته؛ فكان له مؤلفات في الفقه وأصوله وفي الحديث والسيرة وفي العقائد والأخلاق والرقائق وفي العلوم الأخرى المختلفة، ونذكر في هذا المقام أبرز مؤلفاته والتي منها:

- الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن وعلم البيان
- الفوائد
- زاد المعاد في هدي خير العباد
- مفتاح دار السعادة.
- أمثال القرآن
- أقسام القرآن
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين.

5. التعريف بكتاب بدائع الفوائد:

ما يلاحظ على الكتاب أنه كتاب موسوعي، جمع فيه صاحبه علوما عديدة، فكان أشبه بكتب المعارف العامة، من دون ترتيب منهجي معين، فيه:

- الحديث عن علوم القرآن والبلاغة والإعجاز.
- الحديث عن أصول الفقه.
- مسائل مهمة في التفسير.
- فصول في علم الكلام.
- الحديث عن المعاني اللغوية والفروق اللغوية.
- فوائد متنوعة عن أدوات الحروف والمعاني وأسرارها في كتاب الله تعالى.
- فوائد نحوية تتعلق بالحديث عن أسرار النحو وعلله، ومسائل صرفية دقيقة.
- فوائد بلاغية واسعة.
- فصول عظيمة النفع جدا في إرشاد القرآن والسنة إلى طريق المناظرة وأدب الحوار.
- فوائد نفيسة في الحكم والمواعظ.
- مسائل وفتاوى في أحكام الشريعة.
- شرح بعض أسرار الحديث النبوي الشريف.

ويبرز في هذا الكتاب عنايته الملحوظة بدراسة النحو وعلوم الآلة، وقد عرف له العلماء المترجمون ذلك (أمثال الذهبي، والصفدي، وابن رجب)، ونوهوا بمكانته ودرايته بعلم العربية: نحوها، وصرفها، وبلاغتها.

وقد استقى مواده من موسوعات تراثية متنوعة، منها اللغوية والنحوية والصرفية. ومنها كتب الفقه والتفسير والسير والحديث ونحو ذلك.

والطبعة التي اعتمدنا عليها في هذا البحث طبعة دار الصفا، القاهرة، الطبعة الأولى 1426هـ / 2005م وهو يقع في مجلدين يتضمن كل مجلد جزءين. يقع الجزء الأول في مائتين وثماني صفحات ويقع الجزء الثاني في مائتين وتسع وثلاثين صفحة، ويقع الجزء الثالث في مائتين وأربعين صفحة، ويقع الجزء الرابع في مائة وواحدة وتسعين صفحة.

6. نماذج للإعجاز اللغوي في القرآن الكريم من خلال كتاب بدائع الفوائد:

1.6 نماذج في الجانب الصوتي:

سبقت الإشارة في ثنايا هذا البحث إلى قول أبي النصر السمرقندي: "... إنّ كلّ حرف وضع بموضعه الذي يناسب المعنى المساق له، ولو غيّر حرف مكان آخر لذهبت فصاحة الآيات وبلاغتها"[17]، وانطلاقا من هذا الوعي نجد ابن القيم يلج باب الحديث عن أوجه الإعجاز في الجانب الصوتي من خلال حديثه عن العلاقة الموجودة بين مخارج حروف فواتح بعض السور ومعانيها حيث يقول: " تأمل سر ﴿الم﴾ كيف اشتملت على هذه الحروف الثلاثة: فالألف إذا بدئ بها أولا كانت همزة، وهي أول المخارج من أقصى الصدر، واللام من وسط مخارج الحروف، وهي أشد الحروف اعتمادا على اللسان، والميم آخر الحروف ومخرجها الفم، وهذه الثلاثة هي أصول مخارج الحروف، أعني الحلق واللسان والشفتين. وترتيب في التنزيل من البداية إلى الوسط إلى النهاية، فهذه الحروف معتمد المخارج الثلاثة التي تتفرع منها ستة عشر مخرجا فيصير منها تسعة وعشرون حرفا عليها مدار كلام الأولين والآخرين، مع تضمنها سرا عجيبا، وهو أن للألف البداية واللام التوسط والميم النهاية، فاشتملت الأحرف الثلاثة على البداية والنهاية والواسطة بينهما، وكل سورة استفتحت بهذه الأحرف الثلاثة فهي مشتملة على بدء الخلق ونهايته وتوسطه، فمشتملة على تخليق العالم وغايته، وعلى التوسط بين البداية والنهاية من التشريع والأوامر، فتأمل ذلك في البقرة وآل عمران وتنزيل السجدة وسورة الروم[18].

ولا ريب أن في هذا إشارة بديعة إلى سر لطيف، في العلاقة بين مخارج الأحرف الثلاثة (الألف واللام والميم)، والمعاني التي حوتها السور التي استفتحت بهذه الأحرف، والمقابلة فيها بين مخرج الهمزة الذي هو أول المخارج أقصى الحلق، وبين بداية الخلق (خلق أبينا آدم وما حصل له في الجنة)، وبين مخرج الميم الذي هو من آخر المخارج وبين نهاية الخلق (من قيام الساعة والحساب والجنة والنار)، وبين مخرج اللام الذي هو بين مخرجي الهمزة والميم وبين معنى التشريعات والأحكام وما يلحقها من التكاليف التي تجري على العباد من بداية الخلق إلى نهايته[19].

هذا فيما يخص ربط مخارج الحروف المتقطعة التي افتتحت بها بعض السور بمعانيها، لكننا نجد ابن القيم يستوقفنا أيضا عند علاقة صفات حروف فواتح السور بمعانيها حيث يقول:" وتأمل السور التي اشتملت على الحروف المفردة كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف، فمن ذلك ﴿ق﴾ والسورة مبنية على السور القافية من ذكر القرآن وذكر الخلق وتكرير القول ومراجعته مرارا، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملكين قول العبد

وذكر الرقيب،و ذكر السائق والقرين، والإلقاء في جهنم، والتقديم بالوعيد، وذكر المتقين، وذكر القلب والقرون والتنقيب في البلاد، وذكر القيل مرتين، وتشقق الأرض وإلقاء الرواسي فيها وبسوق النخل والرزق، وذكر القوم وحقوق الوعيد، وسر آخر وهو أن كل معاني هذه السورة مناسبة لما في حرف القاف من الشدة والجهر والعلو والانفتاح[20].

ثم نجد ابن القيم لا يكتفي بهذا التوضيح بين علاقة صفات الحروف المفردة التي افتتحت بها بعض السور بمعانيها، بل نجده يستوقفنا عند سورة أخرى من سور القرآن الكريم وهي سورة (ص)، حيث يقول: " وإذا أردت زيادة إيضاح هذا (يقصد علاقة صفات الحروف المفردة الفواتح بمعاني السور)، فتأمل ما اشتملت عليه صورة ﴿ص﴾ من الخصومات المتعددة، فأولها خصومة الكفار مع النبي ﷺ وقولهم: ﴿ **أجعلَ الآلهةَ إلهًا واحدًا** ﴾ **[ص:5]**، إلى آخر كلامهم، ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملإ الأعلى في العلم وهو الدرجات والكفارات، ثم مخاصمة إبليس واعتراضه على ربه في أمره بالسجود لآدم، ثم خصامه ثانيا في شأن بنيه وحلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم، فليتأمل اللبيب الفطن هل يليق بهذه السورة غير ﴿ص﴾، وبسورة ﴿ق﴾ غير حرفها[21].

2.6. نماذج في الجانب الصرفي:

إن الاختلاف في البنى الصرفية إنّما يأتي ليضيف دلالة أخرى إلى الدلالة الأصلية، وهنا نشير إلى أنّ هذا الاختلاف كثيرا ما يتصل بمناسبة السياق القرآنيّ في عرض الآيات، إذ المحدّد الأساس للأثر الدلالي للبنية الصرفية هو السياق لا القوالب الجامدة التي تنأى بنفسها عن روح النصّ وحركيته الدلالية، يلفت ابن القيم أنظارنا إلى لطيفة من اللطائف البديعة في التعبير القرآني والعناية بانتقاء الصيغ لأداء المعنى والوفاء به في كثير من المواطن في كتابه بدائع الفوائد حيث يذكر وجه الإعجاز في ورود صيغة الفعل وكذا صيغة اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿**لا أعبد ما تعبدون**﴾[الكافرون،02]، وقوله:﴿**ولا أنا عابد ما عبدتم**﴾ [الكافرون04]، فيقول: " جاء بالفعل المستقبل (أعبد)تارة وباسم الفاعل(عابد)أخرى، ودلالة هذا براءته ﷺ من معبوديهم بكل وجه وفي كل وقت فأتى أولا بصيغة الفعل الدالة على الحدوث والتجدد، ثم أتى في هذا النفي بعينه بصيغة اسم الفاعل الدالة على الوصف والثبوت فأفاد في النفي الأول أن هذا لا يقع مني، وأفاد في الثاني أن هذا ليس وصفي ولا شأني، فكأنه قال عبادة غير الله لا تكون فعلا لي ولا وصفا[22].

كما يكشف لنا ابن القيم في موطن آخر وجه الإعجاز في انتقاء الصيغ الصرفية في قول الله تعالى ﴿**فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا**﴾[الكهف97]، حيث يقول: "فلما كان النقب فيه جهد جاء باستطاعوا، ولما كان فعل الظهور على السّد يحتاج إلى خفة جاء باسطاعوا[23].

ويجلي لنا أيضا وجه الإعجاز في جمع الظلمات وإفراد النور في قوله تعالى: ﴿**الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات**﴾ [البقرة257]، وفي جمع السبيل الباطل وإفراد سبيل الحق في قوله تعالى: ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل**

فتفرق بكم عن سبيله﴾ [الأنعام 153]، فيذكر أنه لما كانت طرق الباطل متعددة جمعت، ولما كان طريق الحق واحدا أفرد، ولما كانت الظلمة بمنزلة طرق الباطل جمعت أيضا، ولما كان النور بمنزلة طريق الحق أفرد[24].

3.6. نماذج في الجانب النحوي:

يقول تعالى: ﴿**سلام على إبراهيم**﴾[الصافات109]، ويقول أيضا: ﴿ **رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت**﴾[هود73]، ويقول: ﴿ **سلام على نوح في العالمين** ﴾[الصافات 79]، ويقول: ﴿ **سلام عليكم بما صبرتم**﴾[الرعد24]، يحاول ابن القيم أن يجلي لنا وجه الإعجاز في هذه الآيات الكريمات فنجده يقول: "فقدم المسند إليه ههنا لأنه دعاء بالخير فقدموا اسم الدعاء المحبوب الذي تشتهيه النفوس، ويلذ للسمع لفظه فيبدأ السمع بذكر الاسم المحبوب المطلوب، ويبدأ القلب بتصوره فيفتح له القلب والسمع، فيبقى السامع كالمنتظر لمن يحصل هذا ، فيقول:عليك أولا، فيحصل السرور والفرح ما يبعث على التحاب والتواد الذي هو المقصود بالسلام، وأما دلالة تأخير المسند عليه في قوله تعالى: ﴿ **وإن عليك اللعنة**﴾[الحجر35]،وقوله: ﴿**عليهم دائرة السوء**﴾[التوبة98]، وقوله تعالى:﴿**وعليهم غضب** ﴾[الشورى16]، فهو في الدعاء عليه ففي تقديم المدعو عليه إيذان باختصاصه بذلك الدعاء وأنه عليه وحده، كأنه قيل له: هذا عليك وحدك لا يشركك فيه السامعون، بخلاف الدعاء بالخير فإن المطلوب عمومه وكل ما عم به الداعي كان أفضل، ففضل عموم الدعاء على خصوصه كفضل السماء على الأرض، كما يقول شيخ الإسلام رحمة الله عليه"[25].

كما نجده في موضع آخر في كتابه يحاول أن يوضح لنا وجه الإعجاز في قوله تعالى: ﴿**ادعوا ربكم تضرعا وخفية**﴾[الأعراف،55]، وقوله: ﴿**وادعوه خوفا وطمعا**﴾[الأعراف56] وقوله تعالى: ﴿**ويدعوننا رغبا ورهبا**﴾[الأنبياء90]، حيث يقول: " لقد قيل في نصب (تضرعا وخفية)و(خوفا وطمعا)و(رغبا ورهبا) إنها على المفعول له وقيل على المفعول المطلق، وقيل على الحال، إلا أن نصبها على الحال أدل وأبلغ لصلاحيته لأن يكون صفة للفاعل وصفة للفعل المأمور به والمعنى ادعوه دعاء طمع وادعوه طامعين في فضله، وكذلك ادعوه دعاء رغبة ورهبة، وادعوه راغبين راهبين"[26].

ويواصل ابن القيم في موضع آخر أن يكشف عن وجه الإعجاز في قوله تعالى: ﴿**قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ**﴾[هود96]، حيث يقول: " ارتفع سلام على الابتداء، ذلك أن سلام الملائكة تضمن جملة فعلية فالمعنى سلمنا عليك سلاما، وأما سلام إبراهيم فقد تضمن جملة اسمية والمعنى: سلام عليكم، والجملة الاسمية تدل على الثبوت والتقرر، والفعلية تدل على الحدوث والتجدد والخطاب بالاسمية آكد منه بالفعلية، فكان له من مقامات الرد ما يليق بمنصبه عليه السلام، وهو مقام الفضل إذ حياهم بأحسن من تحيتهم"[27].

كما يستوقفنا ابن القيم عند وجه الإعجاز في الجانب النحوي في قوله تعالى:﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما**﴾[الفرقان63]،فسلاما صفة لمصدر محذوف أي قالوا قولا سلاما أي سليما من الفحش، ليس مثل قول الجاهلين الذين يخاطبونهم بالجهل، فلو رفع السلام على الابتداء لم يكن فيه المدح المذكور، بل كان يتضمن إذا خاطبهم الجاهلون سلموا عليهم، وليس هذا معنى الآية، ولا مدح فيه[28].

هـذه نمـاذج أوردناهـا على سـبيل التمثيـل لا على سـبيل الحصـر، والتي تكشـف بوضـوح جهـود ابـن القـيم الجبـارة في الإعجـاز اللغـوي في الجانـب الصـوتي والصـرفي والنحـوي مـن خـلال كتابـه بـدائع الفوائـد، هـذا الأخير الـذي جاء مفعما بإشراقات ولطائف بيانية.

7ـ خاتمة:

مـا يمكـن أن نخلـص إليـه في خاتمـة هـذا البحـث هـو أن ابـن القـيم كـان لـه جهـود جبـارة وإسـهامات بـارزة في مجـال الإعجـاز اللغـوي ، ومـا تضـمنه كتابـه " بـدائع الفوائـد " مـن إشـراقات لغويـة في جوانـب الصـوت والصـرف والنحـو، وذلـك مـن خـلال تلـك النمـاذج التي تـم عرضـها في ثنايـا هـذا البحـث، خير دليـل على ذلـك، ومـا ينبغي لنـا التأكيـد عليـه هـو غنى تراثنـا، وجهـود علمائنـا الأجـلاء الـذين نـذروا حيـاتهم لخدمـة كتـاب الله تعـالى دسـتور هـذه الأمـة، ومـا علينـا إلا التنقيـب والكشـف عـن تلـك الجهـود وإبرازهـا، كمـا تجـدر بنـا الإشـارة أيضـا إلى أن كتـاب بـدائع الفوائـد يعـد بحـق إبـداعا خالصا يكشـف عن عبقرية فذة لدى هذا العالم الهمام.

8. قائمة المراجع:

1-القرآن الكريم.

2-ابن القيم، بدائع الفوائد، ج3، ط1،مكتبة الصفا، القاهرة،1426-2005.

3-ابن رجب، طبقات الحنابلة، تح: حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، 1376 – 1976.

4-أبو النصر السمرقندي، المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى، تح صفوان عدنان داوودي،ط1، دار القلم، دمشق، 1408هـ/ 1988م.

5-أبوالحسن الندوي: رجال الفكر في الدعوة في الإسلام، ج 2، ط 6، دار القلم، الكويت ، 1403هـ – 1983م.

6-أحمد ماهر البقري، ابن القيم من آثاره العلمية، (مؤسسة شباب الجامعية، القاهرة، 1407هـ-1987م.

7-جمال البنا، تثوير القرآن، دار الفكر الإسلامي، القاهرة.

8-السيوطي، التحبير في علم التفسير، تح: فتحي عبد القادر فريد، دار العلوم، الرياض، ط1، 1409هـ.

9-الشوكاني، البدر الطالع لمحاسن من بعد القرن السابع، ج 2، دار الكتب العلمية، بيروت.

10-صديق أحمد مالك، الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، العدد 23، 1432هـ،2011.

11-علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، تح: إبراهيم الأنباري، ط4، دار الكتاب العربي، بيروت، 1992.

12-علي عبد السميع حسين، التيسير في أصول واتجاهات التفسير، دار الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية.

13-العيد حذيق،جهود أهل السنة والجماعة في الإعجاز اللغوي والبياني للقرآن الكريم، مذكرة ماجستير جامعة الجزائر 1، 2010،2011.

14-فؤاد إفرام البستاني، منجد الطلاب، ط44، دار المشرق، بيروت، 1996، مادة فسر.

15-محمد طاهر الصديقي الفتني، مجمع بحار الأنوار، ج1، مجلس دائرة المعارف العثمانية، بحيدر آباد – الهند، 1387هـ/1967.

16-مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار ،التفسير اللغوي للقرآن الكريم، ، دار ابن الجوزي.

9.الهوامش:

[1] محمد طاهر الصديقي الفتني، مجمع بحار الأنوار، ج1 مجلس دائرة المعارف العثمانية، بحيدر آباد – الهند، 1387ه/1967، ص 311، 312.

[2] فؤاد إفرام البستاني، منجد الطلاب، ط44، دار المشرق، بيروت، 1996، مادة فسر، ص 551.

[3] السيوطي، التحبير في علم التفسير، تح: فتحي عبد القادر فريد، دار العلوم، الرياض، ط1، 1409ه، ص 38.

[4] علي عبد السميع حسين، التيسير في أصول واتجاهات التفسير، دار الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ص 12، 13.

[5] مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، التفسير اللغوي للقرآن الكريم ، دار ابن الجوزي، ص38.

[6] أبو النصر السمرقندي، المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى، تح صفوان عدنان داوودي،ط1، دار القلم، دمشق، 1408ه/ 1988م، ص 9.

[7] علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، تح: إبراهيم الأنباري، ط4، دار الكتاب العربي، بيروت، 1992.

[8] صديق أحمد مالك، الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، العدد 23، 1432ه،2011، ص19.

[9] المرجع نفسه، ص21.

[10] جمال البنا، تثوير القرآن، دار الفكر الإسلامي، القاهرة، ص39.

[11] صديق أحمد مالك، الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص26.

[12] أبو النصر السمرقندي، المدخل لعلم تفسير الله تعالى، مصدر سابق، ص11.

[13] المصدر نفسه، ص11.

[14] ينظر: أحمد ماهر البقري، ابن القيم من آثاره العلمية، (مؤسسة شباب الجامعية، القاهرة، 1407هـ-1987م، ص 226.

[15] ابن رجب، طبقات الحنابلة، تح: حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، 1376 – 1976، ص 447.

[16] الشوكاني، البدر الطالع لمحاسن من بعد القرن السابع، ج 2، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 144، وينظر: أبوالحسن الندوي، رجال الفكر في الدعوة في الإسلام، ج 2، ط 6، دار القلم، الكويت ، 1403ه – 1983م ، ص 318.

[17] أبو النصر السمرقندي، المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى، مصدر سابق، ص11.

[18] ابن القيم، بدائع الفوائد، ج3، ط1،مكتبة الصفا، القاهرة، (1426-2005)، ص 147.

[19] العيد حذيق،جهود أهل السنة والجماعة في الإعجاز اللغوي والبياني للقرآن الكريم، مذكرة ماجستير جامعة الجزائر 1، 2011،2010، ص127.

[20] ابن القيم، مصدر سابق، ج3، ص 147، 148.

[21] المصدر نفسه، ص 148.

[22] المصدر نفسه، ص129.

[23] ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص147.

[24] المصدر نفسه، ص 113.

[25] المصدر نفسه، مج1ن ج2، ص144.

[26] المصدر نفسه، ص15.

[27] المصدر نفسه، ج3، ص130.

[28] المصدر نفسه، ص130.